الحقيقة لها وجهان

الحقيقة لها وجهان

مجموعة قصصية

نيللي عبد العزيز

الحقيقة لهـا وجهـان

مجموعة قصصية

اسم الكاتبة: نيللي عبد العزيز
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: ١٤٩٨٢ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

الإهداء

إهداء إلى رحمة ربي

إلى من علمتني قيمة العطاء

إلى أمي الحبيبة حفظها الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحقيقة لها وجهان

تتلخّص فكرة مجموعتي القصصية في أنّها تُناقش صورًا ومواقفَ من حياتنا المصرية الصميمة عن طريق عرض القضية من وجهتي نظر لشخصين مختلفين؛ فأيّ حقيقة في اعتقادي لها وجهان قد يتطابقان أو يختلفان وقد يُفسِّرُ كلٌّ منهما الآخر.

القصة الأولى

نجحت الخطة

سوف أغلق عيادتي، قرار لا رجعة فيه، عيادتي التي طالما حلمت بها منذ نعومة أظافري، لقد حلمت بهذا المكان بكل تفاصيله، بكل تعبه وصخبه ونجاحاته بل وحتى إخفاقاته، وللأسف بعد أن أصبح الحلم حقيقة، بعد أن أصبح المكان لا يخلو من مريضاتي سوف أمحيه من الوجود بجرّة قلم، سوف أُوقّع اليوم عقد إيجار عيادتي لزميلٍ وأكتفي أنا بعملي الصباحيّ الرتيب في المشفى الحكومي لساعاتٍ معدودةٍ أحسبها الدهر، وأعود لبيتي مبكرًا لأعد طعام الغداء وأنتظر عودة حسام من البنك لأستقبله هاشّةً باشّةً محتسبةً عند الله نجاحي.

فإمّا أن أغلق عيادتي أو أغلق بيتي؛ فحسام لم يعد هو الزوج الرقيق المسالم الذي لا يرفع عينه في عين امرأةٍ أخرى غيرى، لقد تبدّل الحال وأصبح له عيون مفتوحة وجريئة، كما أنّ تصرفاته باتت تثير الريبة والشك في نفسي، فجأةً أصبح له مواعيد مسائية يخرج بها ليلتقي أصدقاء لم أسمع بهم يومًا.

ثم ما هذا الاهتمام المبالغ فيه بالنسبة لمظهره؟ ولماذا أصبح لا يقضي أمسياته بالمنزل مع ابنتنا ندى حتّى موعد رجوعي من العيادة كما اعتدنا منذ سنوات؟

أراه ينفرد بالمحمول طويلًا ولا يتكلم فيه إلّا هامسًا.

هل من المعقول أنّ حسامًا يحب أخرى؟ أخاف حتّى من سؤاله فماذا لو قال لي نعم؟

الحل الوحيد أمامي الآن أن أحتويه وأكون معه في كلّ لحظة، من الآن سوف أذهب معه لكلّ مكان.

أعترف أنّي أخطأت في حقه منذ تزوجنا، سحبني العمل منه شيئًا فشيئًا، خطفني منه حتّى وأنا بين أحضانه، لذلك لا أقوى على المواجهة، من الأصلح المهادنة، سوف أغلق عيادتي حتّى تتّضح الأمور.

ولكن لن أغلقها نهائيًّا فأنا طبيبة ماهرة وسأظل ولن ينجح زوجي أن يجعل منى ربّة منزلٍ أبدًا

حنان

وجه الحقيقة الآخر:

نجحت الخطة، سوف تغلق حنان عيادتها وتكتفي بالعمل الصباحي. إنّني أحبها وأحب بيتنا وابنتنا الوحيدة ندى، كلّ ما أتمناه أن أنعم بوقتي معهما، أحلم بأن نخرج ثلاثتنا لنتمشّى على الكورنيش ونأكل الذرة المشويّة، أريد أن أتناول العشاء مع زوجتي في مكانٍ هادئ، أو حتّى أسهر معها بالبيت أمام التلفاز دون أن تكون مضطرةً للمغادرة لأنّ ميعاد ولادة إحدى مريضاتها قد حان، أو ترغب في الخلود للنوم مبكرًا بسبب الإرهاق لكثرة العمل، لقد حرمتني من حق الاستمتاع معها بمباهج الحياة، حرمتني حتّى من حقي في أن أنجب أخوات لابنتنا الوحيدة ندى، وبالتالي حرمت ندى من وجود أشقاء في حياتها رغم أنّي طلبت منها ذلك مرارًا، فهي تعرف أنّي عشت حياتي في كنف أمي وحيدًا بعد رحيل أبي، في الحقيقة كنت أتمنى إنجاب عشرة من الأبناء لأعيش صخب الحياة سعيدًا بينهم.

سفينة الحياة تمر بنا سريعًا ألا يحق لنا أن نتمتع بها قبل أن نُسلب هذه المتعة بسبب فراقٍ أو مرضٍ لا قدّر الله؟

ساذجة حنان لأبعد حدٍّ عندما صدّقت أنّي أحب غيرها، ولكن فليكن ذلك فأنا راضٍ كلّ الرضا عن نتائج خطتي، سوف تغلق حنان العيادة وهذا معناه أنّها تحبني أكثر من نجاحها وشهرتها، ما زال حبها لي ورغبتها في الحفاظ عليّ لهما المقام الأول عندها وهذا يرضيني تمامًا.

واهمة هي إن فكرت أنّي سوف أسمح لها بفتح العيادة والانسحاب من حياتي مرّةً أخرى فحنان أصبحت من الآن لي وإلى الأبد.

حسام

القصة الثانية

عـودة وحنـــين

ما هذا الشعور الذي يجتاح مشاعري كأنّه الطوفان؟ طوفان اسمه نبيلة أطاح بكلِّ آلام القلب وأوجاعه وحلّ به كبلسم، كدواءٍ شافٍ لكل ما مضى.

لم أكن يومًا أحب نبيلة ابنة عمتي فأنا من زمنٍ أعرف أنّ أخي الأكبر سامي يحبها ويرتب أوضاعه في بلاد الغربة حتّى يستقدمها كعروسٍ له وقد تمّ كلّ ذلك بمباركتي وشديد فرحي له ولها.

ما الذي تبدّل في الأمر الآن؟ فأنا أشعر أنّ نبيلة حوّلت صحراء قلبي لجنّةٍ خضراء بمجرّد رجوعها لمصر، إنّ حياتي كانت مملّةً ورتيبةً منذ هجرتني زوجتي وأصرّت على الطلاق وحملت معها قرة عيني ابني الحبيب وعمره ثلاثة شهور، حبيبي الذي لا تكتحل عيني برؤيته إلّا مرّةً في الأسبوع لساعاتٍ محدودة.

أوصاني أخي سامي رحمة الله عليه قبل وفاته بيومين بنبيلة خيرًا وقال: أرجوك يا محمود حافظ عليها وعلى مالها فهي جميلة وصغيرة وسوف تكون ذات مالٍ بعد أن ترثني، والطامعون فيها سوف يكونون كُثر، زَوِّجها ممّن ترضاه لها أنت وأبي وتتأكدان من صلاحه، فهي لم تسئ عشرتي يومًا رغم تعنُّتي معها، ولم تشكني لأحدٍ رغم أنّي حرمتها من الولد بسبب مرضي، الحقيقة أنّي لم أعط لها حتّى حق الاختيار في أن تستمر معي على هذا الحال أو لا، وعندما اشتد بي المرض وجدت

منها كلّ الحنان والرحمة رغم أنّي أغلقت عليها طوال سنواتي معها ألف بابٍ وباب.

ثم أضاف بوهنٍ شديد: لا تتعجّب يا أخي من صراحتي معك فيبدو أنّ الموت يقترب وأريد أن أتخفّف من بعض أحمالي لعلّ الكريم يسامحني ويغفر لي.

فقلت له مُشفقًا: لا تقل ذلك يا سامي شدّة وسوف تزول، أنعم الله عليك بالصحة وطول العمر وتعوضها أنت بنفسك عن كلّ ما تظن أنّك قصّرت به.

وزالت الشدة فعلًا إلى الأبد وصعدت روح أخي لبارئها بعد هذه المصارحة بيومين فقط، بعد أن نفض عن أكتافه حمله الثقيل ووضعه على أكتافي أنا.

مرّت الأيّام بطيئةً وكئيبةً على الجميع ولكنّ الحياة لا تتوقّف لرحيل غالٍ ولا عزيز.

بعد مرور الوقت عزمت على تنفيذ وصيته ونقلت رغبته في زواج نبيلة لأبي الذي هو خالها، فأجاب بحزن: كلام موزون يا محمود فلماذا تبقى نبيلة بدون زواج؟ وهي صغيرة السن، وجميلة ولم يرزقها الله من أخيك بالولد، الله المستعان على تنفيذ وصيته.

ولكن ماذا حل بي الآن؟ بعد أن استكانت الأحزان وبدأ الخُطّاب بالفعل يطرقون باب نبيلة إما لجمالها أو لمالها، الله أعلم، ما لي حتّى لا أطيق مجرّد التفكير بالموضوع؟

غير ذلك لقد كنت في السابق أحاول مرارًا وتكرارًا أن أرجع لطليقتي حتّى يكبر الولد بيننا، ما لي كففت الآن عن المحاولة وزهدت فجأةً ولم يعد لي رغبة في أيّ شيءٍ غير رؤية نبيلة والحديث معها وسماع صوتها وتخيُّلها بجانبي أسمع منها وأحكي لها، فمجرّد وجودها يُلوِّن حياتي بألوانٍ زاهية لم أعهدها من قبل.

يا ترى لو صارحتها بمشاعري فماذا يكون جوابها وهي أرملة أخي التي لم تفكر بي يومًا؟

أرجو ألّا يكون الجواب قاسيًا.

محمود

وجه الحقيقة الآخر:

رجعنا لنقطة الصفر من جديد، وجهي في وجه محمود، نفس دقات القلب عند رؤياه، نفس الرعشة التي تسري في بدني لسماع صوته، ثم نفس لعثمة اللسان واللخبطة عند الرد على أيّ كلامٍ يوجهه لي، الفارق الوحيد هو محاولاتي البائسة المجهدة للسيطرة على نفسي حتّى لا يظهر ما بداخلي على وجهي أمامه وأمام خالي وزوجته، في الماضي قبل زواجي من سامي كنت لا أخاف ولا أحاول كبت مشاعري بهذه القوّة، الآن الوضع مختلف، لم يعد كما مضى، لم أعد بنت عمته الصغيرة المفتونة به والتي تحبه من طرفٍ واحدٍ وتريده أن يفهم وهو لا يفهم أبدًا، أنا الآن أرملة أخيه.

أرملة أخيه الأكبر العائدة من بلاد الغربة بلا زوج، أو ولد، وبلا عمل أيضًا ولكنها عادت بكم لا بأس به من خيبة الأمل، كما عادت بالكثير من المال فميراثي من سامي كبير لأنه كان يعمل ليل نهار في بلاد الغربة متناسيًا كلّ الاعتبارات الإنسانية للمخلوقة التي تعيش معه وكل احتياجاتها النفسية.

خطبني سامي وأنا في بداية العشرينات من عمري، صعقت يوم أن جاء خالي لخطبتي فهو يطلب يدي لسامى إذن وأنا الفتاة التي تحلم طول عمرها بمحمود خاطبًا.

صحيح لم أفصح عن حب عمري يومًا لأحدٍ لكن عين أمي الخبيرة كانت ترى وتفهم، بعد أن رحل خالي عن بيتنا جذبتني أمي لحضنها وقالت في حنانٍ بالغ: أفهمك حبيبتي وأفهم رغبتك في محمود ولكنه لم ولن يأتي، هو لا يفكر بك، من يريدك حقًّا هو سامي، إنّه مهندس ناجح، صحيح سوف يسافر بك ويأخذك بعيدًا عن حضني ولكنّه ابن خالك وأمين عليك حبيبتي، وسوف أكون مطمئنة وأنت معه فلا تشغلي بالك يا ابنتي بمن لم يشغل باله بك، فالحب من طرف واحد حب بلا أمل محكوم عليه بالموت قبل أن يولد.

ولأنّي الفتاة المهذبة المطيعة لكلام أمها وافقت على سامي وقلت لعلّ الله يعوضني به خيرًا، وسافرت معه عاقدةً العزم على النسيان وتاركةً دقّات قلبي المضطربة المتسارعة في مصر واستبدلت بها دقّاتٍ أخرى أكثر انتظامًا وحكمة.

لكنّ حسّ أمي خانها هذه المرّة فسامي لم يحفظني كما توهّمت أمي مع أنّي أخلصت له وقدّمت له قلبي خالصًا طاهرًا من أوّل يوم، الحقيقة هو لم يُهنّي أو يجرحني ولكنّه لم يكن يراني أو يحسّ بوجودي أصلًا، من الواضح أنّه تزوج ليكمل مظهره الاجتماعي ويعصم نفسه في بلاد الغربة وفقط.

وما زاد الطين بلة عندما تأكد من عدم قدرته على الإنجاب فأغلق عليّ باب البيت، لا عمل، لا زيارات، لا علاقات بالجيران، والزيارات لمصر أيضًا أصبحت شحيحةً ومتباعدة، الزيارات التي كانت السلوى الوحيدة لي. ثم مرض سامي، وتدهورت حالته تدريجيًّا وهو يكابر ويعاند في رجوعنا لبلادنا، لم يخفف عنا المعاناة إلّا زيارات محمود المتكررة للاطمئنان على أخيه، وفي هذه الفترة لم يكن محمود يُمثِّل لي شيئًا أكثر من أنّه ابن خالي وأخو زوجي.

وفي آخر زيارةٍ سمعت سامي يهمس كثيرًا لمحمود ولم أسمع ما كان يقوله له.

بعد وفاة سامي رحمه الله رجعت لبلدي أخيرًا، أبى خالي إلّا أن أقيم ببيته فأمي توفاها الله من سنواتٍ وسبقها أبي منذ كنت طفلة، وأمام إصرار خالي وافقت أخيرًا.

آه يا ربي رجعنا لنقطة الصفر فعلًا، وجهي بوجه محمود طوال الوقت؛ فهو يسكن في الشقّة المقابلة لشقّة خالي بمفرده منذ أن هجرته زوجته بعد عامين من الزواج حاملةً وحيدهما.

وكيف لي أن أخنق طائر الحب الجميل بيدي بعد أن بدأ في الرفرفة من جديد؟ وكيف أهرب منه وإلى أين؟ ومحمود في كلّ مكان حولي يشبه الهواء الذي أتنفسه.

أسمع خالي وزوجته يتحدثان عن محاولاتٍ للصلح بينه وبين طليقته حتّى ينعم الابن الصغير بحضن والديه وأدعو الله أن يكلل محاولاتهما بالنجاح.... فهل أنا حقًّا صادقة في دعائي، أشك في ذلك فأنا ما زلت أهواه فهل يحس بي هو يومًا؟

جميلة

القصة الثالثة

رجل البيت

يبدأ يومي قبل شروق الشمس بل قبل حتّى أن أغسل وجهي يبدأ الشقاء.

أهرول مسرعةً صوب باب العمارة التي من المفروض أنّ زوجي "بشير" يعمل حارسًا لها لأغسل سيارات السكان وخصوصًا سيارة الأستاذ/ عبد الفتاح؛ فلا بد أن تكون جاهزةً قبل السابعة صباحًا، فأنا لا ينقصني أن أسمع كلمتين من لسانه الطويل "الطويل جدًّا" خاصةً وأنا في بداية يومي.

أسرع لحجرتي مرّةً أخرى للاطمئنان على البنات وأعد لهم طعام المدرسة، ثم أخرج لشراء الجرائد والخضار وطلبات السكان التي لا تنتهي.

كلّ هذا وبشير يغط في نومٍ عميقٍ وأنا أدعو الله أن يبقى نائمًا لوقتٍ أطول، فمع استيقاظه يبدأ شقاء من نوع آخر.

الشاي باللبن يا سندس.... أمرك، اشتري لي سجائر يا سندس فقد نفدت.....حاضر.

أريد بطاطس وباذنجان مقليًّا للإفطار يا سندس.....من عيوني.

ثم تستيقظ أمه المريضة التي تعيش معنا في نفس الحجرة فأبدأ في تنظيفها وتغيير ملابسها وإطعامها وإعطائها الدواء، تتعبني حقًّا فهي قعيدة الفراش ولكنّه نوعٌ من التعب الذي أحتسب أجره وثوابه عند

الله. أثناء ذلك يأتيني صوت بشير مستفزًا من حديقة العمارة طالبًا كوبًا من الشاي.... حاضر.

"هيا يا سندس حان وقت تنظيف شقق السكان، اليوم دور مدام مرفت، وغدًا عند الدكتورة هناء، وبعد غدٍ لا بدّ من غسيل سجاد زوجة الأستاذ/ عبد الفتاح، والويل كلّ الويل من التقصير فيما يخص هذا الرجل، اجري يا سندس لقد تأخرت اليوم وحان موعد تجهيز طعام الغداء، "الحمد لله ليس لدينا اليوم غسيل فقد غسلت ملابسنا بالأمس"، أقول ذلك في نفسي وقلبي يكاد يقف بسبب دقاته المتسارعة وأنفاسي المتلاحقة، فيأتيني صوت بشير طالبًا كوبًا آخر من الشاي.... حاضر، وهل أجرؤ على شيءٍ غير أن أقول "حاضر"؟

في الحقيقة لقد تولّدت بيني وبين الشاي عداوة شديدة بسبب عدد الأكواب التي يطلبها مني بشير في اليوم الواحد.

ومع كلّ هذا أنا راضية، وكل ما أتمناه أن يمر اليوم بسلام دون أن يطيل بشير يده عليّ أو على نقودي.

لقد تعبت يا بشير من الضرب والإهانة بسببٍ وغير سبب، فأيّ ذنبٍ ارتكبته عندما قلت لك المال الذي يرزقني الله به من تنظيف شقق العمارة ملك لي، هو تعبي، ثم هل أصرفه على نفسي؟ إنّ لبناتك احتياجاتٍ كثيرةً أنت عنها غافل أو متغافل، أكل، شرب، ملابس، ثم

الهم الأكبر فلوس الدروس الخصوصية. والمصيبة الأكبر أنّك ما زلت تريد الولد، هذا آخر ما ينقصني، حمل وولادة وتربية من جديد.

أظن مهما قلت لك ارحمني لا فائدة. أُفوِّض أمري لله وحده فهو أرحم الراحمين.

سندس

وجه الحقيقة الآخر:

أنا رجل البيت يا سندس أعمل أو لا أعمل أنا الرجل، حتّى لو لم أقم من مكاني أصلًا.

ثم إنّني سبب كلّ ما أنت وبناتك به من نعمة؛ فلو لم أكن أمتلك بُعد النظر ما كنا تركنا قريتنا الفقيرة ذات الرزق المحدود حيث كنا أحيانًا نبات دون عشاء وجئنا للإسكندرية لأعمل حارس عقار.

أنت بسببي في خير كثير، عشت في منطقةٍ راقيةٍ ما كنت يومًا تحلمين أن تمري أمامها، بناتك ذهبن للمدرسة وأصبحن يتكلمن مثل بنات المدينة، بسببي غيّرتن ملابسكن المهلهلة ولبستن الملابس الجديدة، كما أنكن ذقتن ألوانًا من الطعام ما عرفتن إياها يومًا. حتّى خدمتك لأمي يجب أن تشكريني عليها، أليس هذا ثواب ساقه الله إليك بسببي؟

تقولين أن النقود التي تحصلين عليها من تنظيف الشقق ملك لك، كيف؟ ألا يكفي أنّك تتركيني بسببها وحدي لساعاتٍ وأحيانًا أضطر أن أصنع لنفسي كوبًا من الشاي أثناء غيابك، شيء مقرف.

لكن تريدين أن تعرفي الحقيقة التي لن تسمعيها مني أبدًا؟ فأنا أكره الحالة التي أنا عليها وقد حاولت كثيرًا أن أعمل لأتكسّب رزقي؛ لأن شهريتي من العمارة لا تكفي شيئًا كما أعلم وتعلمين، ولأنّي لا أريد

أن تكوني صاحبة فضلٍ عليّ، لكنّ الفشل حليفي دائمًا، فأنا لم أفلح في أيّ عمل، يبدو أنّني خُلقت لأكون باشا، ولكنّ الحظّ يخاصمني دومًا.

كلّ ما أخشاه إن بقي القرش معك أن تتكبرين عليّ؛ لذا فسوف أسلبك إياه دومًا، أنا أتعمد أن أذلك وأكسرك حتّى لا ترفعي عينك في عيني يومًا وتقولي أنّك أنت رجل البيت، أفعل ذلك وأنا في غاية الاطمئنان أنّك لن تهجريني، فإلى أين تذهبين يا مسكينة ببناتك؟ وأهلك أغلب من الغلب ذاته ولن يتحملوك أنت والبنات ليومٍ واحد.

بشير

القصة الرابعة

غربة بدوام كامل

ليست هذه الإجازة التي كنت أحلم بها منذ سنتين لأنعم بالحضن الدافئ لكريمان والأولاد: وائل ورشا وروان.

لقد طالت غربتي بالبلد العربي الذي أعمل به لثماني سنوات، منذ أن كان عمر وائل عشر سنوات، ورشا ست سنوات، ولم تكن روان قد جاءت للدنيا بعد.

الغربة كئيبة خاصةً أنّني لم أقدر على النزول لمصر في الإجازة الماضية، ولم أتمكّن من استقدامهم لي لأنّي لم أمكث الفترة السابقة في بلدٍ واحدٍ لأكثر من أسبوع، لقد كان ظرفًا قاسيًا ولكنّها ظروف العمل.

الغريب أنّي منذ أن أتيت وأنا لا أحس بالبهجة في وجوههم كما اعتدت، حتّى لمتنا أنا وأخواتي في بيت والدي لم تغدُ كسابق عهدها ولكني أعزو ذلك لعدم وجود أبي.

رحمة الله عليك يا والدي فقد منعتني غربتي من وداعك وحضور جنازتك، ليتني كنت بجانبك أثناء مرضك الأخير، كلّ ما يطمئنني أنّك كنت كلّ مرّةٍ أهاتفك بها تؤكد لي أنّك لظروفي مُقدِّرٌ وتدعو لي.

الذي يؤرقني فعلًا هو تغيُّر كريمان من ناحيتي، أين كريمان التي كانت بمجرّد وصولي تتفنّن في عمل كلّ أصناف الطعام التي أحبها؟ أين أحاديثنا المتصلة؟ أين جلسة الشاي عصرًا في شرفة شقتنا القديمة؟

لم يحدث قطُّ قبل ذلك أن ذهبت كريمان للنوم وتركتني بمفردي، إنّها الآن تتخلّى عني بكل أريحية لتكمل مسلسلها التركي الممل، دردشتها مع صديقاتها على المحمول لا تنقطع حتّى أثناء جلوسي معها، والأغرب والذي لم أفهمه هو ما حدث بالأمس، عندما أحضرت لها البسبوسة بالقشدة التي تعشقها ومن الحلواني المفضّل لديها، عندما نظرت لي بكلِّ عتابٍ وكأنّني اقترفت في حقها خطأً كبيرًا، ولم تأكل منها مطلقًا!

أمّا أبنائي فحدث ولا حرج، وائل أصبح رجلًا له صوت خشن في غفلة من الزمن، أحس أنّه غريب عني والأغرب تصرفاته، لا يريدني أن أسأل لأين هو ذاهب، إنه حتّى لا يقبل أن أضع يدي على كتفه أثناء سيرنا معًا بالطريق كما كنا دائمًا.

أما رشا حبيبة أبيها فقد أصبحت تعيش في دنيا أخرى في عالم افتراضي خاص بها هي وصديقاتها على مواقع التواصل الاجتماعي ممّا يثير القلق، رشا التي كانت أقرب من الكلّ لي قلت لها أريد أن أذهب معك للنادي فأجابت بأنّ لديها موعدًا مع إحدى صديقاتها، ثم أضافت بكلِّ برودٍ بأنّها لا تذهب للنادي من الأساس فقد أصبح موضة قديمة، فالآن توجد أماكن أرقى وأفضل بكثير.

يا سبحان الله! النادي الذي دفعت في اشتراكه دم قلبي لأنكم كنتم تحلمون به أصبح موضة قديمة!

أما روان هذه الكتكوتة الصغيرة ذات أربع السنوات فتقريبًا تعاملني على أنّي حارس العقار أو شيء من هذا القبيل، ومن المحتمل أن تتعامل مع الحارس بودٍّ عني، الحقيقة بتُّ لا أعرف إن كانت تخجل مني أو تكره وجودي معهم من الأساس؟ فقد سمعتها تسأل كريمان عن موعد رحيلي!

الوضع أصبح غريبًا وغير محتمل، غربة في بلاد الغربة وغربة في بيتي أيضًا، إذن الغربة في البلد العربي أهون بكثيرٍ على الأقلّ هم يدفعون لي راتبًا محترمًا، أمّا هنا فغربة ونكد بدوام كامل دون دفع النفقات.

رأفت

وجه الحقيقة الآخر:

يتساءل رأفت يوميًّا نفس السؤال منذ أن رجع لقضاء إجازته معنا، لماذا تغيرتم جميعًا؟ سبحان الله ألا يعلم حقًّا ماذا حدث؟

إنهما سنتان يا زوجي العزيز، أربعة وعشرون شهرًا، أي: سبعمائة وعشرون يومًا، بالضبط سبعة عشر ألفًا ومائتان وثمانون ساعةً (١٧٢٨٠) وأنت غائب عنا.

ألا تتذكر عدد المرات التي طلبت فيها منك خلال هذه المدة أن تأتي إلينا أو تستقدمنا لك ولو لأسبوعٍ أو حتّى أيّام؟

عندما مرض والدك يا رأفت مرضه الأخير لم تأت لزيارته وتمريضه، لم تأت حتّى لتنظر في وجهه وتُقبِّل يده، أقنعت نفسك بأنّ أخواتك بهم الكفاية، بل وصدقته عندما قال لك أنّه يُقدِّر مشاغلك وأنّه راضٍ عنك، صدقته فقط حتّى تريح نفسك من عناء عذاب الضمير، حتّى يوم الوفاة لم تأت لحضور جنازته.

المال ليس أغلى شيء يا رأفت، نعم أعترف قبل سفرك كانت أحوالنا المادية كأسرةٍ غايةً في السوء، عامًا بعد عامٍ تحسنت كثيرًا، لكنك دخلت بكامل إرادتك وبمفردك معركة الأصفار، أنت الذي لم تقنع بأن ننتقل من شقتنا الصغيرة في الحي القديم لشقّةٍ أكبر

وحسب، فلا بدّ من بناء فيلا كبيرة فخمة الأثاث، إنها كبيرة، كبيرة جدًّا يا رأفت لدرجة أنّي أشعر فيها بالضياع وحدي دونك، إنها باردة جدًّا يا زوجي العزيز فلم أنعم بين جدرانها الزاهية الألوان بالدفء الذي طالما نعمت به داخل شقّتنا القديمة ذات الطلاء الباهت المتهالك.

لم يكن من الضروري أن يذهب الأولاد للمدرسة الدولية فمصروفاتها تقصم الظهر، كان من الممكن أن ترفض فكرة اشتراكنا في النادي العريق، لا أخفي عنك سرًّا، الأولاد لم يعد أحدٌ منهم يذهب إلى هناك، هم طوال الوقت مع الأصدقاء من المطعم الفلاني للمقهى الفخم العلاني، حفلات وسفريات لا أوّل لها ولا آخر، أصبح لا همّ لهم غير صرف المال الذي تجمعه أنت ثمنًا لعمري وعمرك الضائعين.

أنت تتساءل ما حلّ بنا؟ أولادنا كبروا يا رأفت وأصبحت لهم حياة خاصة بهم أنت بالطبع لست جزءًا منها لأنك غير متواجد، أمّا أنا فإنّي أحاول أن أفتح نافذة ولو صغيرة أطل منها على حياتهم الجديدة للاطمئنان عليهم، أنا في شقاء لصعوبة التعامل مع وائل ورشا في هذه السن الحرجة.

أمّا روان وليدة الغربة فهي لا تعرفك، صدقني هي فعلًا لا تعرفك، طفلة تبلغ من العمر أربع سنوات لم تر والدها منذ سنتين، إذن لها كلّ الحق في أن تتعامل معه كغريبٍ أتى لزيارتنا حاملًا بعض اللعب والملابس والحلوى الذين لم تكن بحاجةٍ لهم من الأساس فهي لا ينقصها شيء.

أمّا عني فقد تعبت، رجوتك لتأتي فأبيت، تألمت، مرضت، سهرت طويلًا وبكيت، ثم تأقلمت وقررت أن أُكيِّف حياتي على عدم وجودك.

نعم لا تتعجب لكلامي، أصبح المسلسل التركي وصديقاتي ومواقع التواصل الاجتماعي والجمعية الخيرية جزءًا لا يتجزأ من حياتي أو بمعنى أصح هم وأولادي حياتي الجديدة. حتّى الطعام تعوّدت أن أطهيه بالطريقة التي يفضلها أولادي أو نطلبه جاهزًا وذلك أكثر راحة؛ لذا سامحني فقد نسيت أن أعد لك أطباقك المفضلة مثلما نسيت أنت أنّ لك في مصر زوجة.

بالمناسبة أشكرك أنّك تذكرت حبي للبسبوسة، وأبث لك شديد ألمي لأنّك نسيت أنّي أخبرتك في إحدى مكالماتنا من شهور أنّي اكتشفت إصابتي بالسكر وارتفاع نسبة الدهون بالدم.

وفي النهاية لو أنّك قررت فعلًا الرجوع لبلدك العربي قبل أن تنتهي الإجازة لن أمنعك، على الأقل ترحم عيون صغيرتي روان من البكاء كلّ ليلةٍ لأنّها تريد كما تعوّدت أن تنام في حضني الذي حرمها وجودك منه، أظن أنّ هذا السبب الرئيس في عدم تقبلها لك أبدًا.

كريمان

القصة الخامسة

السكوت من ذهب

مرت عشر سنوات على زواجي من سحر. كانت سحر زميلتي بكلية الحقوق، تصغرني بعامين، التقيتها أوّل مرّةٍ بأحد اجتماعات اتّحاد الطلبة بالكلية، الحقيقة كانت لافتة للنظر لأقصى درجة. فتاة قائدة بكلِّ ما للكلمة من معنى، كما أنّها شعلة نشاط، ومحبوبة من الجميع.

عرفتها مجاهدة في سبيل ما تسميه حقوق الطلبة، فهي مجاهدة في سبيل أيّ قضية يؤمن بها قلبها.

ومن غير الممكن أن يمر أيّ حدث سياسي، عالميًّا كان أو محليًّا، دون أن يكون لها به رأي تدافع عنه بكلِّ حماسٍ لا أعرف من أين تأتي به؟

مرت الأيّام، تخرجت سحر ولحقت بي كمتدربةٍ في مكتب المحامي الشهير الذي كنت أعمل به ذلك الوقت، فأصبحت محور اهتمام كلّ من بالمكتب لرجاحة عقلها وسرعتها في تعلم أصول المهنة.

لا أخفي عنكم سرًّا كنت أغار منها ذلك الوقت فقد سرقت مني الأضواء بعد أن كنت أنا الحصان الرابح بمكان عملنا، ولكنّي غفرت لها ذلك بسرعة لأنّه بات من الواضح لي أنّ ما أحسّ به تجاهها ليس مجرّد إعجابٍ بفتاةٍ ذكيّة، إنّه الحب وبلا أدنى شك، جاءتني الجرأة أخيرًا فصارحتها ووجدت أنّها تبادلني نفس المشاعر.

وجمع الله بيننا أخيرًا في بيت واحد، حياتنا معًا كانت رائعة، حب وثقة وتفاهم متبادل، مع بعض المشاكل المادية التي تغلّبنا عليها بالصبر والحكمة.

مرت بنا سفينة الحياة سريعة، ورزقنا الله ثلاثة من الأبناء، بنت وولدان توأم.

صارحتها يومًا برغبتي في أن تترك العمل وتتفرغ لتربية أبنائنا لأنّي -والحمد لله- مَنَّ الله عليّ وأصبح لي مكتب خاص ذائع الصيت في مدينتنا الساحلية الصغيرة، ونعم الله تتوافد علينا يومًا بعد يوم، من جانبها لم تمانع قطُّ، وزاد اهتمامها بالبيت والأولاد.

مرت السنون وتحوّلت سحر حبيبتي لسحر أخرى غير التي تزوجتها، من هذه المرأة الصامتة؟ أين حيويتها وروحها المشاغبة؟ أين آراؤها في كلّ ما يدور حولنا، ما يخصنا وما لا يمت لنا بصلة؟!

أفتقد صوت زوجتي، حائط من الجليد يُبنى بيننا يومًا بعد يوم، أصبح صمتك كابوسًا يطبق على أنفاسي يا سحر.

سألتها لم تقل شيئًا مفيدًا، اللهم إلّا بعض التفاهات التي لم أجد لها معنى، رجوتها لترجع لسابق عهدها، لا فائدة.

هل يا ترى تركها للعمل منذ سنوات هو سبب هذا الصمت الآن؟

لو أتأكد من أنّ رجوعها للعمل سوف يخرجها من هذه الحالة ويكون السبب في استعادة زوجتي فمرحبًا بالعمل من جديد، حتّى يعيد لي روح البيت المسلوبة منه مهما كانت العواقب.

أحمد

وجه الحقيقة الآخر:

إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب، إذا كان الصمت سوف يحفظ للإنسان كرامته فمرحبًا به لأنّ كرامتي أغلى ما أمتلك.

لم تهتز لي شعرةً عندما طلب مني أحمد ترك العمل رغم أنّي أعلم غيرته مني، ولكنّي أحبه، ومؤمنة إيمانًا كاملًا بأنّ دور المرأة كزوجة وأم أهم الأدوار التي خلقها الله من أجلها، وأنّ ذلك أهم بكثيرٍ من تحقيق الذات والاعتماد على النفس والكلام الكثير الذي تتغنّى به فتيات هذا الجيل، ويتردّد أيضًا بقوّةٍ في منتديات حقوق المرأة وغير ذلك. وإن كان طلب أحمد تنافى مع قناعتي ما كنت استجبت له قطُّ مهما حدث فأنا لا أفعل إلّا ما أومن به، ثم إنّني لا ينقصني شيء يجعلني أتمسّك بالعمل حتّى أكمل نقصي فأنا مثقفة، جميلة، أنيقة، وقد أنعم الله عليّ بشخصيّة قويّة ومؤثّرة.

معاناتي الحقيقيّة هي أحمد ذاته، نعم لقد نسي أو تناسى لا أعرف أنّه كان سابقًا لا يخطو خطوةً دون استشارتي، أراه الآن يُسفِّه كلّ آرائي، يستخف بكلِّ ما يقال على لساني، فكلّ ما أقول محلّ سخريته. هذا تفكير متخلف، وهذا قرار غير موفّق، وغيره رأي غير سديد، أما أيّ موضوع أهتم به فهو تافه وغير جدير بالنقاش من الأساس.... هذا أسلوب حواره الجديد معي، الأدهى من ذلك والأكثر

مرارةً أنّ كلّ ذلك يتم أمام أولادنا الذين طالما حاولت أن أغرس فيهم قيم احترام النفس واحترام الآخرين وتقبل اختلاف الآراء، كما أنّي أزرع في نفوسهم مبدأ أنّ كرامتهم كنز لا يمس.

وكيف لي ذلك وكرامة أمهم تمتهن أمامهم يوميًّا بهذا الأسلوب؟ وكيف يصدقون كلامي ومن الواضح لهم أنّ أمهم أصبحت عاجزةً عن التفكير السليم وليس لها رأي واحد سديد، أحيانًا أتساءل بيني وبين نفسي، هل تراجع وعيك فعلًا لهذه الدرجة يا سحر؟ هل فقدتِ حكمتك؟ هل هي الحقيقة أنّك أصبحت غير قادرة على حل أيّ مشكلة بمفردك؟

ولكن لا، لن أفقد إيماني بنفسي أبدًا فأنا كما أنا لم أتغيّر، لقد أخذت قراري، من الأكرم لي "الصمت" حتّى إشعار آخر، ما دمت تحدثت معه فلم يفهم، وردعته فلم يرتدع، ولأنّي لم ولن أسعى في خراب بيتي فالصمت ملاذي إلى أن أحصل على حقي في الكلام دون أيّ امتهانٍ لكرامتي.

سحر

القصة السادسة

مرحلة انتقالية

أنا في حالة صدمة، نعم إني مصدوم وغير قادر على تذوق أيّ طعمٍ للدنيا غير طعم المرار الكامن في حلقي، هل هي حقًّا نادمة على اختيارها؟ أيعقل أنّها تشعر بأنّها أخطأت عندما قررت الزواج مني؟ ليس لدي لحالها أيّ تفسير غير هذا التفسير المؤلم.

عندما التقيتك لأوّل مرّةٍ يا نور بمعرض الذكاء الاصطناعي بدبي عرفت من أوّل لحظةٍ تلاقت فيها عيوننا أنّك النصيب، لم ينقطع الحديث بيننا للحظة رغم أنّنا كنّا يومها عن بعض غرباء، حتّى بعد انتهاء إجازتك ورجوعك للقاهرة كنت أبحث عن الحُجّة تلو الأخرى حتّى أتواصل معك وأسألك في أمور خاصة بالبرمجيات أعلمها جيّدًا بالطبع فأنا أسبقك في مجال العمل بسنوات، وأعلم الآن علم اليقين أنّك وقتها كنت تفهمين كلّ حججي وتباركينها وكنت مثلي في السعادة تبحرين.

عندما صارحتك بمكنون مشاعري قلت لك: أمامك الآن كفّتان، كفّة بها بلدك وأهلك وأصدقاؤك والأخرى بها أنا وحدي مع وعدٍ أبديٍّ بإسعادك ما دُمت حيًّا، لا يمكن أن أنسى فرحتي يومها عندما قلت لي: يبدو أنّ كفّتك ثقيلة جدًّا يا عمر.

ذهبت قلقًا لخطبتك من والدك وصدق حدسي فقد عارض قائلًا: يا ابني أنت شاب ممتاز ولكن ما أبعد الهويات بينكما فأنتما من عالمين مختلفين، أنت خليجي وبنتي مصرية ولكلٍّ منكما ثقافته الخاصة، ثم أضاف: ثم إنّي لا أقوى على فراق ابنتي.

لكن أمام إصرارك وإصراري رضخ أخيرًا بعدما وعدته ألّا تطول غيبتك عنه أبدًا خاصةً أنّي والحمد لله ميسور الحال، فلا توجد مشاكل مادية تمنعنا من زيارته باستمرار.

والآن بعد زفافنا الذي تمّ بالقاهرة كما طلب والدك ومنذ رجوعنا دبي بعد انقضاء شهر العسل ماذا حلّ بك يا حبيبة القلب؟ أراك دومًا ساهمة، كما أرى آثار الدمع بعيونك رغم أنّك تحاولين جاهدةً إخفاءه عني، أين ابتسامتك؟ أين مرحك؟

إن كنت قد فعلت دون قصدٍ ما سبّب لك الألم فصارحيني، فأنا لا أطيق أن أكون سبب عذابك، أما إن كنتِ حقًّا نادمة على زواجنا فيا طول عذابي!

عمر

وجه الحقيقة الآخر:

مشكلتي تتلخّص بأنّي مصرية، بل شديدة المصرية يا عمر، مصرية حتّى النخاع.

كانت فترة خطبتنا قصيرة؛ لذا فجل ما تعرفه عني أنّي مهندسة البرمجيات، كريمة الأسرة الكبيرة، التي تقطن في واحد من أرقى أحياء القاهرة فظننتني مثلك من عالم ميسوري الحال وفقط.

إنّها القشرة الخارجية، أمّا نور من الداخل، فهي فتاة مصرية بسيطة للغاية، يسعدها جدًّا قرطاس الفول السوداني الساخن أثناء المشي مع الصديقات على كوبري قصر النيل مساءً، هل تعرف أنّي أُفضِّل الفرجة على فاترينات وسط البلد أكثر من أرقى المراكز التجارية، لعلك لم تكن تتوقّع أنّ فسحةً بالفلوكة في النيل ساعة عصاري أبهى عندي كثيرًا من ركوب اليخوت الفاخرة، هل تصدق أنّ التجول بشارع المعز بالقاهرة القديمة يجعلني أشعر بالشغف أكثر من الذهاب لمتحف اللوفر؟ وأنّ طبق الكشري المصري الساخن ألذ طعمًا عندي من أشهى أطباق المطاعم العالمية، أنا غارقة في المصرية يا عمر، وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيس الذي جعل أبي يؤكد أنّ هوياتنا بعيدة فهو يعرف ابنته حق المعرفة.

وقت أن سافرت معك من القاهرة لدبي أحسست أنّ لأصوات محركات الطائرة أنينًا في قلبي، وكلّما ارتفعت في الجو سحبت جزءًا من روحي معها، حتّى استقرت فوق السحاب أصبحتُ تقريبًا بلا روح، وعندما غاب عني هواء مصر كُلّيًّا شعرت بعدم القدرة على التنفس، حتّى إنّك ظننت أنّي أخشى الطيران، فوافقتك الرأي حتّى لا تحزن، على الرغم من أنّي لم أخش الطيران يومًا.

أعرف أنّ الكثير من البنات يحسدونني، والكثير منهم سوف يهزؤون بكلامي إن سمعوه، فقد تزوجت من رجلٍ أحبه، وسيم، ثري، أعيش معه في مدينة الأحلام بالنسبة لكثير من البشر.

ولكن إيّاك أن تحزن يا حبيبي من حالتي الراهنة، فليس أبدًا معنى افتقادي لحياتي في مصر أنّي نادمة على الزواج منك، اطمئن يا حبيبي فكفّتك كما هي ثقيلة وكل ما أمر به الآن كنت أعلم علم اليقين أنّي سوف أمر به، إنّها يا عمر مرحلتي الانتقالية بين عالمين ولسوف أتخطاها قريبًا، كلّ ما أحتاج إليه حتّى تمر بسلامٍ هو صبرك وحكمتك، إلى أن تهدأ أمواج قلبي المتصارعة على شطك أنت.

نـــور

القصة السابعة

ملكية خاصـة

هذه هي المرة الأولى التي يزورني فيها علاء بمكتبي، زيارة مقلقة يا ترى ما السبب؟ فقد كان علاء دومًا لا يحبني، منذ بداية ارتباطي بشيرين وعلاء أخوها الأكبر لا يستلطفني ولا يحاول أن يكلف نفسه حتّى مشقة إخفاء هذا الشعور، فلطالما عبّر عنه بأساليب شتى دون قصدٍ وكثيرًا من الأحيان فيما أعتقد كان عن قصد.

الغريب أنّي في قرارة نفسي أحسبه صاحب فضل وجميل عليّ، فعندما أرادت شيرين الطلاق مني لم يكن قطُّ من المساندين لها ولا من الداعمين قرارها، على الرغم من أنّ موقفه هذا كان نابعًا فقط من حبه لأولادي والحفاظ على مصلحتهم، ولكن أظن أنّ موقفه كان نبيلًا، وفي النهاية إصرار شيرين كان أقوى من أيّ محاولاتٍ للصلح بيننا.

بدأ معي علاء الحديث بودٍّ وترفُّقٍ وسألني عن صحتي وأحوالي ممّا زاد من قلقي وتوتري، ثم أخذ يسهب في ذكر تفاصيل لا داعي لها عن أننا عائلة واحدة مهما حدث وكيف أنّ الأولاد يربطون بيننا للأبد.....

"يا مثبت العقل والدين يا رب" ماذا يريد مني هذا الرجل؟

ثم فجّر القنبلة في وجهي دون سابق إنذار، شيرين ستتزوج، وهو الآن يتفاوض معي لضمان بقاء الولدين مع أمهما بعد الزواج.

ظهرت على وجهي علامات الغضب والاستياء ممّا أثار قلقه، فالولدان في سنٍّ قانونيّة تسمح لي بالمطالبة بحضانتهما وخصوصًا في حال زواج الأم.

لكن الحقيقة التي لم يدركها علاء هو أنّي سرحت في عالمٍ آخر ودارت بي الدنيا وأصبحت غير قادر على تفسير كلماته الأخيرة حتّى إنّي تقريبًا بتُّ لا أسمع صوته ولا أعي ما يقول.

شيرين ستتزوج! هل ستكون لغيري؟ كيف ذلك؟ ولماذا لم يخطر ببالي قبل ذلك يومًا فكرة زواجها من آخر؟ وماذا يقول هذا الـ"علاء"؟ نعم، الآن فهمت إنّه يتحدث عن حضانة الولدين إذن.

واهمٌ أنت يا علاء إن ظننت أنّي قادر على تحمل مسؤولية ولدين في سن المراهقة ولا على رعايتهما، وفي الحقيقة إنّهما ليسا أوّل همي الآن، كلّ ما أفكر به كيف تكون شيرين لغيري؟ بالطبع هذا محال.

مع أنّي منذ انفصالنا تزوجت مرتين وانتهت زيجاتي بالفشل، والحقيقة أنّ لي من العلاقات الكثير.

عقلي يقول لي إنّ شيرين إنسانة مثلك ولها من المشاعر ما لك ومن حقها أن تبدأ حياةً جديدة، ولكنّ صوتًا آخر من داخلي لا أعرف مصدره يقول: "هراء، على جثتي، لن يحدث، هي زوجتي وأم أولادي، وملكيتي الخاصة إلى الأبد".

لا أعرف حتّى إن كنت ما زلت أحبها أم لا، ولا أعرف إن كان مُقدّرًا لنا يومًا أن نرجع لبعضنا أم لا، كلّ ما أعرفه الآن أنّي لن أسمح لهذه الزيجة بأن تتم.

شكرًا يا علاء فقد أهديتني فكرةً لم تكن لتخطر ببالي، ولداي أيضًا ملكية خاصة لي ولن أسمح لهما بالبقاء في بيت رجلٍ غريب، إذن هما الورقة الرابحة التي سألعب بها، سأعلنها صراحةً إن تزوجت شيرين لن يبقى الولدان بحضانتها ليومٍ واحد، وأنا بالطبع أعرفها لن تقوى على فراق ولديها، لذا ستلغي فكرة الزواج.

أشكرك علاء للمرة الثانية وهدية مقبولة.

أكرم

وجه الحقيقة الآخر:

إذن أكرم يرفض بشدّةٍ أن يعيش ولداه ببيت زوج أمهما، هذا ما قاله لي علاء بعد لقائه معه.

مجرّد كلام أمّا الحقيقة فأنا أعيها جيّدًا، أكرم يحاول أن يُفشل الزيجة لأنّه ما زال يحبني، أنا متأكدة من ذلك أكرم ما زال يهواني، بل لم يكرهني يومًا، والحقيقة أنّي أيضًا ما زلت في حبه غارقة.

خانني أكرم كثيرًا، كنت أتغاضى عن ذلك ما دام لا أحد من الأهل أو الأصدقاء يعلم، ولكن في مرّته الأخيرة كانت خيانته لي مفضوحة والكلّ علم بها، لم أقو على تحمل الجرح، ثارت نفسي لهذه الخيانة العلنية فكان لا بدّ من رد فعل قوي للثأر لكرامتي الذبيحة، فطلبت الطلاق وبإصرار.

وبعد مرور السنين اشتقت لأكرم كثيرًا، إنّه حب عمري، ولا بدّ من أنّه تغيّر الآن فلا شيء يبقى على حاله، كما أنّه تزوج بعدي مرتين وفشل، أرى أنّه حتّى لم يقو على العيش مع غيري.

قصة الولدين حجة واضحة، إنه لا يريدني أن أتزوج من غيره، الحقيقة ولا أنا، إنّني فقط أحرك المياه الراكدة بيننا ليس إلّا، وطوال

عمري لن أكون لغيره، يوجد نوع مثلي من النساء لا تستطيع أن تحب إلّا رجلًا واحدًا عمرها كله، مهما طال بها هذا العمر.

أنا لم ولن أفكر في عريس الغفلة الذي تقدم لخطبتي، ولن أقبل به أبدًا، فقط إنّه الطعم الذي أعتقد أنّ أكرم ابتلعه كاملًا.

هو اليوم مصدوم، يومان فقط لا غير وسوف يأتي طالبًا الصفح والغفران، طبعًا في البداية سوف أرفض بشدّة، كلّ من حولي سوف يضغطون عليّ لأقبل من أجل مصلحة الأولاد، سوف أتدلّل وأتمنّع عليه، لكن ليس كثيرًا فأنا أعرف طبعه جيّدًا ملولًا ومُتعجِّلًا، لذا سوف أوافق بعد قليلٍ على أن أُظهر للجميع أنّي أوافق على مضض من أجل مصلحة الأولاد ليس إلّا.

إذن اهدئي يا شيرين فالوضع تحت السيطرة.

شيرين

القصة الثامنة

مـا أقـسى ضعفي!

لم أذهب لعملي منذ أسبوع، أسبوع كامل وأنا على هذه الحالة المزرية، لا أريد النهوض من سريري صباحًا، غير قادر على التفوُّه بكلمةٍ مع أيّ إنسانٍ حتّى شيماء.

بالأمس تفاهمت مع نفسي، وسألتها عن السبب حتّى أهدتني الإجابة، أعتقد أنّ بلوغ شيماء سن اليأس هو السبب في الحالة التي أمر بها، فببلوغها سن اليأس انقطع كلّ أملٍ لنا في الإنجاب.

ولكن ما هذا؟ يا لحماقتي! هل صدقت فعلًا أنّها هي السبب في عدم الإنجاب؟

لقد أقنعت هي الكلّ بذلك حتّى ترفع عني أيّ إحساسٍ بالحرج، وأنا من جانبي تركتها تمضي قدمًا في كذبتها بكل أريحية، دون أن ألومها أو حتّى أشكرها، لقد تعاملت مع كذبتها على أنّها أمر مفروغ منه، حتّى اكتشفت الآن أنّي أنا أيضًا قد صدقتها.

تعاملت طوال الوقت مع مشكلة تأخرنا في الإنجاب على أنّها مشكلة شيماء الخاصة، إلى أن أجرينا الفحوص اللازمة وتأكد لنا دون أدنى مجالٍ للشك أنّ فرصتي في الإنجاب تكاد تكون منعدمة. أصبحت محطمًا نتيجةً للضعف الذي شعرت به داخلي، وبعد قليلٍ تمخض هذا الضعف عن قسوةٍ لم أعهدها في نفسي من قبل.

حتّى إنّي جلست معها بعد اكتشافنا للأمر بأيّامٍ قليلة والقلوب ما زالت جريحة، وخيّرتها إمّا أن تبقى معي للأبد دون تذمر، وإمّا أن أطلقها في هذه اللحظة، فاختارتني على الفور ولا أعلم للآن إن كان اختيارها لحظتها حبًّا أم شفقة.

أعلم بالطبع الآن أنّني قد ظلمتها حينها بهذا الامتحان الإجباري المفاجئ، ولكن يبدو أنّي تعمّدت ذلك فقد كنت أخاف أن تتركني فعلًا.

في كلّ لحظةٍ بعد ذلك اليوم تعمّدت القسوة، حتّى اعتدتها فأصبحت سلوكًا طبيعيًّا، كنت أرفض كلّ طلبٍ لها حتّى لا أكشف عن الضعف الكامن داخلي، حتّى طلبها بأن نكفل طفلًا من أيّ دارٍ لرعاية الأيتام ليكبر بيننا رفضته، في الحقيقة للآن لا أعرف لماذا رفضت هذا الطلب المشروع؟ لقد كنت غبيًّا، فما أقسى ضعفي!

ولكن يبدو أنّه آن الأوان أن أتحرر من قسوتي، لا بدّ أن أُدخل الفرحة على قلبها حتّى أتخفّف من إحساسي بالذنب، يا له من إحساس قاتل. سوف أخبرها اليوم بموافقتي على موضوع الكفالة حتّى تدخل البهجة قلبها وقلبي من جديد.

سليم

وجه الحقيقة الآخر:

أخيرًا تحدثت يا سليم، أخيرًا سمعت صوتك، منذ أسبوع وأنا لا أسمع لك صوتًا حتّى أصابني القلق، أسبوع كامل لم تذهب لعملك أو تحلق ذقنك حتّى ظننت أنّك مريض أو تتعرض لمشاكل جسيمة بالعمل وتخفي عني، آه منك لقد أخفتني بشدّة.

ذات ليلةٍ وأنا أفكر بحالك خطر لي خاطر، هل من المعقول أن يكون حزينًا لأنّي أخبرته بوصولي لسنِّ اليأس؟ ولكني نفضت الفكرة من رأسي بسرعة، ببساطة لأنّ سنّ اليأس هذه وصلنا لها معًا منذ ثماني وعشرين سنة، يوم أن أخبرنا الأطباء بأنّك غير قادر على الإنجاب.

حينها يا سليم وفي هذا الوقت شديد الصعوبة خيّرتني بين الحياة معك دون أطفال وبين الطلاق فورًا، فاخترتك أنت، وطوال هذه السنين لم تُعد عليّ السؤال ولو لمرّةٍ واحدة، وكم كنت أتمنى أن تعيده لألف مرّةٍ حتّى أجدد لك عهد حبي في كلّ مرّة، لكني أعلم أنّه الخوف أن أتركك، أليس كذلك؟

فعلت كلّ شيء حتّى أُطمئن روحك القلقة دائمًا، حتّى إنّي تحمّلت قسوتك التي لا أعلم من أين لك بها! لم أخالفك الرأي يومًا، ولم أعصي لك أمرًا ولكن هيهات لروحك أن تهدأ وتطمئن.

والآن وبعد أسبوعٍ من الصمت الكئيب مر عليّ كأنّه الدهر، جاءني صوتك متهللًا، مُحمّلًا بالبشرى الغالية، "ما رأيك يا شيماء بأن نكفل طفلًا؟ ألم تريدي ذلك من زمن؟ تواصلي مع أيّ دار للرعاية وأنا تحت أمرك في أيّ إجراءات مطلوبة".

أضحكتني بشدّةٍ يا سليم، هل اتّخذت القرار أخيرًا بعد ثماني وعشرين سنة؟ ولمَ الآن؟ لمَ بعد أن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا؟ هل تظن أنّي الآن بصحة تُمكِّنني من رعاية طفلٍ صغير؟ هل بك أنت من الصبر الآن ما يؤهلك لتنشئته وتقويمه؟

وقبل كلّ ذلك أين هي دار الرعاية التي تقبل بأن تعطي طفلًا صغيرًا لأسرةٍ تجاوز الزوجان فيها الخمسين؟

حقًّا لا أفهمك، لماذا رفضت سابقًا؟ ولماذا قبلت الآن؟ كلّ ما أعرفه أنّه قرار فات أوانه من زمن، ومن الأفضل لي ولك أن تترك جروح القلب مغلقة يا زوجي الحبيب.

شيماء

القصة التاسعة

عريس للمرّة الثالثة

كم هو لطيف اليوم، شخص مختلف تمامًا عمّن كان بالأمس يضع خاتم الخطبة بإصبعي.

عندما دعاني اليوم لنخرج ونتناول طعام الغداء معًا كدت أن أرفض لأعبر له عن غضبي منه بسبب سلوكه ليلة أمس، لكنني قلت في نفسي: لا يصح أن أفتعل معه المشاكل في صبيحة ليلة خطبتنا.

تربيت أنا وأخي في كنف أبٍ وأمٍّ غاية في الحنان علينا، أمي توفاها الله وأنا في بداية المرحلة الثانوية، فكان أبي رغم حزنه خير معين لي لتجاوز الأزمة، حتّى ارتبطت به كثيرًا، فلم أر بين آباء صديقاتي أبًا بمثل حنانه.

مضت بنا الأيّام كما قدّر الله لها أن تمضي، تخرّج أخي الأكبر في الجامعة، وتزوج على عجلٍ ثم هاجر هو وزوجته لكندا، بعدها تخرجت أنا وتمت خطبتي لزميلي بنفس الكلية والذي يسبقني بثلاث سنوات.

وجاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، مرض أبي مرضًا شديدًا قاسيًا في نفس ذات الوقت الذي تحصّل فيه خطيبي على فرصة العمل التي كان يحلم بها في الخليج العربي، من جانبه أراد أن نتمم مراسم الزواج سريعًا حتّى أسافر معه، ومن جانبي رفضت بشدّةٍ ترك

أبي قعيد الفراش وحيدًا ليخدمه فلان أو علان، وما النتيجة؟ تم فسخ الخطبة بمنتهى الهدوء.

ومنذ ذلك الحين أعلنتها صريحةً لكلِّ خاطب، شرطي الأساسي أن نقيم مع أبي في بيته أو يقيم معنا هو، لن أتركه وحيدًا، وما النتيجة؟ لم يقبل أحدٌ بهذا الشرط قطُّ.

اشتد مرض أبي واشتد معه التصاقي به، إلى أن لبّى نداء ربه تاركًا لي الوحدة والألم، أصر عمي على أن أترك مدينتي الساحلية وأنتقل للإقامة معه هو وزوجته وابنته الصغيرة بالقاهرة وساعدني كثيرًا حتّى حصلت على عملٍ يناسب مؤهلي.

تعرفت على طارق الطبيب الوسيم ابن جيران عمي بنفس البناية منذ زمن بعيد، كان طارق لا يترك مناسبةً تجمعنا تمر دون أن يحاول التقرب لي فيها، ترددت كثيرًا قبل أن أطلق لقلبي العنان ليبادله مشاعره نظرًا لاختلاف ظروفنا، وفي النهاية انهارت مقاومتي.

عندما تقدم لخطبتي شجّعني عمي على الموافقة قائلًا: طارق إنسان محترم يا بنيتي، لا تصدقي كلّ ما يقال عنه، فأغلبها مجرّد حواديت لا أساس لها من الصحة اعتادت الناس أن ترددها عن كلّ رجلٍ أعزب، ولا تنسي أنّه شديد الوسامة، أما بالنسبة لفشله في حياته السابقة، فكل شيء قسمة ونصيب.

شجّعني كلام عمي كثيرًا وخصوصًا أنّه صادف في نفسي هوى، وقلت لمَ لا، لعلّ الله يعوضني به ويعوضه بي خيرًا، فأنا بالحقيقة متلهفة على السعادة، وأريد أن أفتح الباب على مصراعيه لأعيش معه الحياة بكل مباهجها بعد أن حرمت منها لسنوات.

وكان من الواضح جدًّا لي أنّ طارقًا إنسان مبهج بالفعل وفوق ذلك خفيف الظل أيضًا، لذا فقد صدمني مظهره المتجهم ليلة أمس وانتقص من فرحتي الكثير، يا ترى هل أسأله اليوم عن السبب؟ أم من الأفضل أن أتركه ليعترف بنفسه عندما يحب؟

جميلة

وجه الحقيقة الآخر:

يا الله! اليوم أستطيع التنفس بحرية أنا وجميلتي فقط، لا قيود، لا مجاملات، لا بشر تنظر إليك وتتفحصك قائلة: مبروك يا عريس.

ظريف شعور الإنسان بأنّه عريس، لكنّه شعور غير مريح على الإطلاق أن تكون عريسًا للمرة الثالثة.

تعلمين جيّدًا يا جميلة أنّي تزوجت قبلك مرتين وأنّي أبٌ لولدٍ يخطو على مشارف مرحلة الشباب، وقد قلت لك أنّي أحب أن نحتفل بخطبتنا بصورة عائلية، لماذا إذن فاجأتِني بدعوة هذا العدد من الناس؟

أعرف أنّك فرحة بخطبتنا، كما أنّي فرح أيضًا، ولكن صدقيني يا جميلتي فسعادتنا لا تعتمد أبدًا على عدد الناس الموجودين بجانبنا وقت الفرح، ثم أليس هم نفس الناس الذين تخلو عنك أنت ووالدك عندما عانيت معه آلام الوحدة والمرض؟

أعرف أيضًا أنّي صدمت مشاعرك كثيرًا بتجهمي ليلة أمس، لكن ليس للإنسان دومًا الإرادة الكافية للتحكم في مشاعره وتصرفاته، فقد كنت فعلًا في حالة اختناقٍ وقلقٍ بل وكنت متوترًا لأقصى درجة، فأنا

بتُّ أكره هذه المراسم، وأريد أن أبدأ معك حياة سهلة وبسيطة أنا وأنت فقط، لا أنوار، لا زغاريد، ولا مدعوين.

سوف أحقق لك رغبتك بأن تحظي بثوب الزفاف الذي تتمنينه لهذا اليوم، لكن عذرًا حبيبتي لن تحظي أبدًا بحفل الزفاف الذي بتُّ أفهم أنّك تخططين له، سوف يقتصر ذلك اليوم على عقد القران بمنزل عمك بعدها نسافر لأيّ مكانٍ في العالم تختارينه أنت.

أعرف أنّي بذلك أنتقصك حقًّا من حقوقك كفتاةٍ لم يسبق لها الزواج، كما أنّي أعرف أنّك ستسامحينني على ذلك، فما تريدينه فوق طاقتي، وقد عاهدت نفسي ألّا أُحمِّلها بعد اليوم ما لا تطيق، كفاني ما تحمّلته في حياتي السابقة.

طارق

القصـة العاشرة

المنتصـــر

منذ طفولتي المبكرة وأنا أشكو ضعفًا شديدًا بالإبصار وأحيانًا أرى الأشياء مشوّشة، عرضني والدي على أفضل أطباء العيون. الكلّ أجمع أنّي أعاني من مرضٍ نادر، سوف يخطف نور عينيّ رويدًا رويدًا، قالوا لوالدي: سوف يرى الدنيا يومًا ما من خلال أنبوب، ثم يضيق قطر هذا الأنبوب إلى أن يصبح كفيفًا كُلِّيًّا بعد عددٍ من السنين لا يعلمها إلّا الله وحده، ثم أضافوا: هذا المرض ليس له علاج معروف حتّى الآن.

أيقنت ذلك وفهمته جيّدًا وأنا في التاسعة من عمري، ولكنني والحمد لله وهبني الله نفسًا راضية، مثابرة لا تتوقف عن الحلم والعمل؛ لذا فقد اتّخذت قراري بأن أنهل من كلّ شيءٍ في الدنيا قبل أن أحرم من رؤية الدنيا ذاتها.

لم أترك رياضةً لم أمارسها وإن كنت لم أتقن أيّ رياضةٍ بالطبع، لم أترك نشاطًا مدرسيًّا دون أن أشارك به، لم أترك كتابًا يقع تحت يدي دون قراءته رغم صعوبة ذلك، وفي سن الشباب خرجت وسافرت واستمتعت بكل ألوان المرح البريء مع زملائي، ورغم ضعف إمكانات والدي في ذلك الوقت فإنّه حرم نفسه وأخوتي من أشياء كثيرة حتّى لا يحرمني من شيءٍ أريده.

حصلت على مجموعٍ كبيرٍ بالثانوية العامة وحقّقت أمنيتي في الالتحاق بكلية الإعلام وخاصةً قسم "العلاقات العامة والإعلان" كما أردت لنفسي، ومع بداية سنوات الجامعة أتاني النذير المنتظر وبدأت دائرة رؤيتي تضيق فأحسنت الاستعداد للحظتي المحتومة بإتقان طريقة برايل، وشراء حاسوب شخصي خاص بالمكفوفين، كما أحضرت عصا خاصة تساعد على المشي، بل وحتى ساعة اليد الناطقة حرصت على اقتنائها.

تخرجت في كليتي متفوقًا على الجميع فعُيِّنت معيدًا وسط تقديرٍ تامٍّ من كلّ أساتذتي بسبب اجتهادي رغم قسوة الظروف، وحظيت بحب تلامذتي جميعًا، كما حظيت بحب عمري تلميذتي "يسر"، ما أجمله من اسم ومعنى ووجه حرصت كلّ الحرص أن أحفظه بذاكرتي! كنت كلّ مرّةٍ يجمعني بها الدرس أتطلع لتفاصيل وجهها بتأنٍّ شديدٍ كتلميذٍ يذاكر الدرس باجتهاد حتّى لا ينساه وقت يحين موعد الامتحان.

وفي هذه السنة بات الأمر جليًّا، لقد حان موعدي المنتظر وبتُّ لا أرى الدنيا إلّا نقطة، فقررت أن تغلق هذه النقطة عند بيت الله الحرام، وكان لي ما أردت، سافرت مع أبي وأمي لأداء مناسك العمرة

فكان آخر ما وقعت عليه عيناي الكعبة المشرفة، واختفى كلّ شيءٍ بعدها كأنّني لم أكن يومًا مبصرًا.

رجعت لعملي لأتعامل مع الدنيا بأسلوبٍ جديدٍ أعددت له العدة مسبقًا، وأصبحت أستدعي من ذاكرتي صور كلّ ما رأيت حتّى أتخيّل ما حولي، وحمدت الله كثيرًا فقد أتاح لي رؤية الدنيا وغيري لم يرها قطُّ.

بحالتي الجديدة كنت مُعيدًا على "يسر" بعامها الجامعي الأخير، وقد كانت أدرى الناس بوضعي فكثيرًا ما تحدثت معها عن مرضي وشرحت لها كيف أتعامل مع الموقف دون أدنى تلميحٍ عن حبي لها، ولكنها فاجأتني اليوم بكلامها.

يسر: أعلم لماذا كنت تدقق النظر بي في كلّ مرّةٍ التقيتني بها العام السابق.

أنا: فعلًا؟

يسر: وهل تظنني غبية؟ لقد أردت أن تحفظ ملامحي حتّى لا تنساني، أليس كذلك؟

أنا بعد أن انهارت مقاومتي: لست قادرًا على نسيانك وإن حاولت، إنّي أحبك يا يسر.

يسر: وأنا منذ أن عرفتك.

أنا: وهل تقبلين بكفيف؟

يسر: أما زلت تسأل؟

أنا: وهل يقبل والدك؟

يسر: أنا قادرة على إقناعه، فأنت كنزي الذي عثرت عليه ولن أتركه أبدًا.

بعد هذه المصارحة كان لدي قوّة دافعة كهربية أكبر مما ينتجه السد العالي. سوف أذهب لوالدها بثقة فارس منتصر فأنا معي سلاح لا يقهر: "حب يسر".

أمجد

وجه الحقيقة الآخر:

جلس "أمجد" أمامي بثقةٍ شديدةٍ لا أعرف من أين أتى بها! فأنا لم أقابله إلّا بعد أن تعرضت للإلحاح الشديد من ابنتي الغالية يسر، وافقت على المقابلة حتّى أكون أمامها وأمام الله أعطيته فرصته كاملة رغم رفضي الشديد للفكرة شكلًا وموضوعًا، فابنتي منحها الله من الجمال والأخلاق وطيب الأصل ما يؤهلها لأن تكون عروسًا لأمير.

عندما فاتحتني بالموضوع قلت لها وقلبي يرتجف: أمجد من؟ أستاذك الكفيف الذي طالما تحدثت عنه بإعجابٍ شديد؟

قالت: وطالما أعجبت أنت بحديثي عنه وأثنيت على صبره واجتهاده.

قلت: نعم، كإنسان مكافح وقادر على تحقيق النجاح في ظروف قاسية وليس كزوجٍ لابنتي الوحيدة.

قالت: وما يمنع ذلك؟

قلت بألم: يسر، إنّه كفيف.

قالت: يرى بعقله وقلبه ما لا يراه الكثير من المبصرين.

قلت: كُفّي عن كلام الأفلام والروايات، إنّنا على أرض الواقع.

قالت: أنا أخبرك عن الواقع يا أبي، فلا أحد يعرفه مثلي، بالفعل إنّ له قلبًا مبصرًا، ثم هو إنسان ناجح بكل المقاييس، ولا شيء برأيي يعيبه.

قلت: هل تريدين رجلًا تعتمدين عليه أم رجلًا يعتمد هو عليك؟

قالت: أمجد قادر على إدارة كلّ شئون حياته دون الاعتماد على أحد، هو بالفعل رجل يعتمد عليه.

قلت: إنه لا يراك، ألن تسعدي بأن يراك عريسك ويثني على جمالك وأنت بثوب الزفاف؟

قالت: هو يعرف شكلي جيِّدًا، وبمجرد أن أصف له ثوب الزفاف سيتخيّلني فهو بارع في ذلك.

ثم أضافت مازحة: يكفي أنّه سيتخيّلني طول العمر بالعشرينات من عمري.

قلت بحدّة: ليس هذا وقت المزاح.

قالت: لا أمزح يا أبي إنّها الحقيقة، هو صاحب خيال واسع.

قلت: وهل لكلِّ شيء عندك رد؟

قالت: سل ما شئت فلدي الأجوبة.

وأضافت: لا بدّ من أن تقابله يا أبي وبعدها نتحدث من جديد وأنا واثقة أنّ الحديث بعد مقابلتكما سوف يأخذ منحى آخر.

وبالفعل قابلته، ويا ليتني ما فعلت! فقد سحرني كما سحر ابنتي من قبل، إنسان راقي الحديث، هادئ الصوت، شديد الثقة بنفسه، مرتب الأفكار كأنّه أعدها مسبقًا لدرجة تثير الدهشة والإعجاب معًا، يتحدث معي وكأنّه يراني حتّى كدت أنسى أنّه كفيف، ولكن ابني الدكتور أحمد لم ينس ذلك قطُّ فقد أمطره بكثيرٍ من الأسئلة عن حالته وتفاصيل حياته بطريقةٍ بدت لي محرجة وبدت ليسر مهينة، الغريب أنّه: كان يرد على سخافات أحمد بكل أريحية، وبسماحة نفسٍ لم أعهدها عند أحدٍ من قبل، حتّى أشفقت عليه أنا من أسلوب حديث ابني معه وحاولت أن أنهي المقابلة بأسرع وقتٍ مُمكنٍ شفقةً عليه من هذه المذبحة الدائرة ببيتي.

أظن أنّي سوف أطلب مقابلته مرّةً أخرى، لكن وحدي دون أحمد، هل أعجبت به؟ يبدو لي أنّه نعم، هل أوافق على زواجه من يسر؟ الحقيقة لا أملك إجابةً حتّى الآن، فيوجد صراع وقتال دائر داخل عقلي لا أعرف من فيه المنتصر، ولكن قناعتي تقول إنّ إنسانًا مثل "أمجد" لا بدّ أن يكون هو المنتصر على الجميع سواء كانت الإجابة عن طلبه بالرفض أو بالقبول.

والد يسر

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017